الفصل الرابع

تســـاؤلات

١ ـ ٤. لماذا... ولماذا.

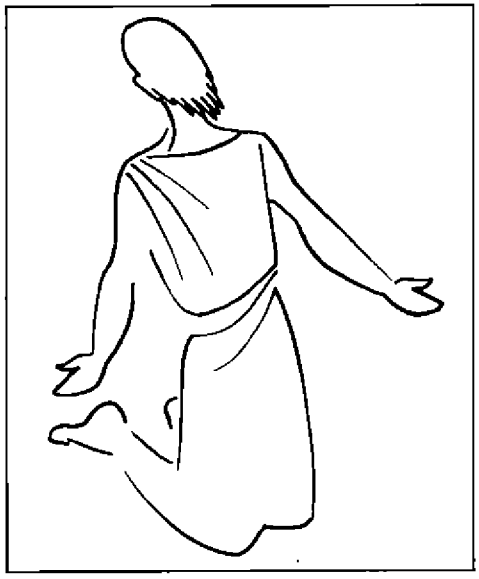

بعد صلاة وصيام لمدة سبعة أيام بدأت مناجاة جديدة. قلت: يا رب. إن لك اصطفاء وانتخاباً لشيء من الأشياء. فأنت قد اخترت الكرمة وباركت فيها أكثر من جميع النباتات التي على الأرض. ومن بين جميع الأراضي اخترت وباركت أماكن العبادة.

ومن كل الورود والرياحين اخترت وباركت الزنابق. لقد فضلت النهر على البحار العظيمة، وباركت

مدينة القدس وفضلتها على جميع المدن، واخترت الحمام فهو أكثر الطيور والعصافير خيراً وعطاءً، وباركت في الحملان فهي نتاج حيوانات مباركة وكثيرة النفع للإنسان، واخترت بني إسرائيل من بين جميع الشعوب والأمم، وأعطيتهم شريعتك التي يعظمونها في كل مكان.

وبعد. أسالك يا مولاي لماذا سلّمت شعبك للشعوب الأخرى تنال من هيبته وكرامته وتجعله ذليلاً مهاناً؟.

لماذا تسمح ببعثرته وتشتيته بين الأمم؟.

لماذا تسمح للأمم الأخرى التي لاتؤمن بك سحق الشعب الذي عاهدك وينتظر وعودك؟.

إن كنت غاضباً على شعبك فلم لا تعاقبه بنفسك؟.

بعد هذه التساؤلات جاءني الملاك الذي كان قد أتاني من قبل وقال: أنصت إليَّ باهتمام وأنا أعلمك شيئاً جديداً. رجوته قائلاً: من فضلك زدني علماً ومعرفة سيدي.

قال: هل أنت مهتم وقلق على مستقبل بني إسرائيل؟.

هل تظن أن محبتك لهم أكبر من محبة اللّه الذي خلقهم؟.

أجبت: لا أظن، ولكني قلق ومضطرب ولا أرى مخرجاً لما نحن فيه. لذلك يخطر على بالي مثل هذه الأسئلة. فأنا لا أستطيع فهم الحكمة التي يبغيها اللّه من وراء قضائه فينا.

أجاب الملاك: حقاً إنك لن تفهم ولن تستطيع فهم ذلك. قلت: ولم يا سيدي؟ أواه لماذا خلقت في هذا الزمان؟. ليتني عشت سابقاً. ومتّ قبل هذا الزمان حتى لاأرى ما يعانيه بنو إسرائيل من ذل ومهانة.

قال الملاك: سأخبرك بما تريد إن استطعت الإجابة عن أسئلتي.
أخبرني عن عدد أولئك الذين لم يخلقوا بعد؟.

هل يمكنك جمع حبات المطر المتساقط دون أن يضيع منها شيء؟.
هل بإمكانك إعادة الحياة الى الزهور التي ذبلت؟.
هل يمكنك إطلاق الريح المحبوسة لتهب وقتما تشاء؟.
هل يمكنك تجسيم الصوت حتى أتمكن من رؤيته؟.

إذا كنت حقاً تستطيع فعل هذه الأشياء فعندها أجيبك عن أسباب عذاب ومهانة بني إسرائيل.

أجبت: لايقدر على فعل هذه الأشياء إلا اللّه وحده، فهو الذي يفعل ما يريد. وماذا أعرف أنا حتى تنتظر مني أن أجيب عن أحد أسئلتك؟.

قال: إذا كنت لاتستطيع فعل أو معرفة أي شيء مما سألتك عنه فكيف تظن أنك تستطيع فهم ومعرفة حكم اللّه وقضائه، أو فهم كيف يتكفل اللّه العناية بشعبه؟.

٢ ـ ٤. التدرج في الخلق سنة الحياة.

قلت للملاك: سيدي، لقد تكلمنا عن أولئك الذين سيشهدون القيامة، فهل لك يا سيدي أن تحدثني عن أحوال أولئك الذين سيعيشون قبل ذلك الوقت؟.

أخبرني عما سيحل بنا نحن الذين نعيش في هذا الزمن؟.

ثم كيف حال أولئك الذين جاءوا قبلنا وكيف سيكون حال الذين سيأتون بعدنا؟.

أجاب: إن بُعْدَ أيام الدنيا وبُعْدَ الأجيال المتعاقبة عن يوم الحساب متساوٍ يشبه تساوي بُعْد محيط الدائرة عن مركزها. وبما أنه لايوجد نقطة بداية على محيط الدائرة ولا يوجد نقطة نهاية، وأنّ البداية والنهاية متقاربتان، كذلك فإن الأوائل لم يأتوا مبكرين جداً كما أن الأواخر لن يحضروا متأخرين.

قلت سيدي: أوليس بمقدور اللّه أن يخلق جميع البشر دفعة واحدة. وفي زمن واحد، بحيث نعيش مع الأوائل ومع الأواخر في زمن واحد، بهذا يقترب يوم الحساب وتكون الحياة الدنيا كلها بمقدار حياة جيل واحد؟.

أجاب: إن اللّه لايعجل بعجلة مخلوقاته، كما أن العالم لايستطيع استيعاب المخلوقات جميعاً دفعة واحدة وفي زمن واحد.

قلت: ألم تخبرني آنفاً أن اللّه سيحيي جميع المخلوقات التي خلقها عبر الأجيال في يوم واحد هو يوم الحساب. فإن كان العالم يستوعبهم في ذلك اليوم فهو قادرٌ على استيعابهم هذا اليوم.

أجاب: إن ما تقوله يشبه قولك لامرأة لها عشرة أولاد لماذا لم تلدي أولادك العشرة دفعة واحدة، بدلاً من ولادتهم واحداً تلو الآخر؟.

قلت: من المستحيل أن تطلب من امرأة هذا الطلب لأنها لاتقدر على إنجاب أولادها دفعة واحدة.

قال: وعلى هذا المنوال وبنفس الطريقة فإن العالم يشبه الرحم. فهو يقذف ببني الإنسان على التتابع في فترات زمنية محددة. والقاعدة المعروفة وهي أن البنت الصغيرة والمرأة العجوز لايمكن أن تلد، تنطبق على العالم الذي خلقه اللّه.

قلت سائلاً: بما أنك طرقت الموضوع هل العالم في زماننا هذا لايزال شاباً فتياً أو أنه في مراحله الأخيرة؟.

أجاب: يمكنك معرفة الجواب من ملاحظة أبناء امرأة أنجبت عدة أولاد. الأولاد الذين أنجبتهم في شبابها أكثر طولاً وفتوة من أولئك الذين أنجبتهم في شيخوختها. وإذا لاحظت أن جيلك الذي تعيش فيه أضعف أو أصغر حجماً من الأجيال التي سبقته، وأن الجيل الذي هو بعد جيلك أضعف من جيلك تستنتج أن العالم قد أصبح في طور الشيخوخة وفقد قوته وشبابه واقترب من نهايته.

٣ ـ ٤. نهاية العالم.

ثم سألت اللّه أن يريني الشخص الذي سيتم على يديه القضاء على العالم، فأعلمني أنه خلق العالم لم يشاركه في خلقه أحد، وهو وحده الذي سوف ينهي العالم دون وساطة أحد، وأنه قد اتخذ هذا القرار قبل خلق العالم، قبل إنشاء أبواب السماء، قبل أن تهب الرياح، قبل أن يومض البرق، قبل أن يقصف الرعد، قبل إرساء قواعد الجنة، قبل أن تظهر الأزهار الجميلة، قبل أن تخلق القوى التي تحرك النجوم، قبل أن تدعى الملائكة إلى الاجتماع، قبل أن يرتفع الهواء في الجو، قبل أن تعطى طبقات السماء أسماءها، قبل أن يختار جبل صهيون موطأ لقدميه، قبل أن تُخط أقدار العصر الحاضر، قبل أن يُلعن الأثمة ومدبروا السوء. وقبل أن يوسم بخاتمه جباه عباده الصالحين[1] المحافظين على الشريعة الحائزين على كنوز الإيمان.

ثم سألت الملاك عن الفترة التي ستفصل بين عالميْ الدنيا والآخرة.

فأجاب بأن المدة لن تكون أطول من الزمن الذي كان بين ولادتي حفيدي إبراهيم التَّوْأَمَيْن عيسو ويعقوب ابْنَيْ إسحاق، إذ ولد يعقوب وهو ممسك بيده كعب قدم عيسو.

وإذا كان عيسو يمثل الوقت الحاضر ـ الدنيا ـ فإن يعقوب يمثل العهد الجديد ـ الآخرة ـ فإذا كانت يد يعقوب تمثل البداية وكعب عيسو تمثل النهاية، فعليك أن تستنتج الزمن الفاصل بين عالميْ الدنيا والآخرة.

قلت: هل لسيدي أن يستجيب لطلبي وهو أن يريني بعضاً من مشاهد نهاية العالم، استكمالاً لما رأيته في ليلة سابقة؟.

أجاب: ستسمع الآن صوتاً عالياً جداً فلاتجزع وخاصة أن الذي تقف عليه سيهتز بشدة، ذلك الصوت سوف يتحدث عن نهاية العالم.

---

(١) ورد في القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون المسلمين حسب الآية الكريمة ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة﴾ سورة الفتح الآية ٢٩.

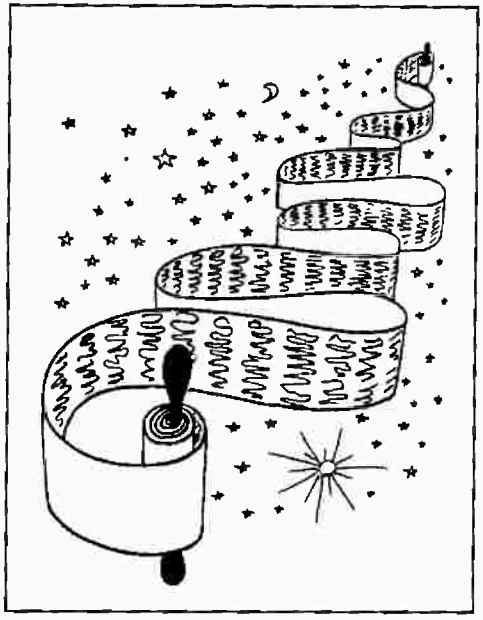

بعد ذلك سمعت صوتاً يشبه هدير نهر صاخب. قال الصوت: اقترب الوقت الذي سوف أدين فيه العالم، جميع سكان الأرض. سأعاقب الظالمين الذين تعدوا على حقوق غيرهم. سينتهي احتلال مدينة القدس وتعود إليها كرامتها.

هذا العصر الذي يوشك أن ينقضي سوف يطوى وسيبدأ عهد جديد علاماته كما يلي.

سوف تنتشر الكتب عبر السماء[1] حتى يقرأها جميع الناس.

سوف ينطق الأطفال ويتكلمون ولمّا يتجاوزوا السنة الأولى من أعمارهم.

سيعيش الأطفال الذين حملت بهم أمهاتهم لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر.

ستصبح الحقول المزروعة جرداء.

ستنضب فجأة المخازن والمستودعات المليئة[2].

بعد ذلك سينفخ في الصور فيستحوذ على قلب كل إنسان يسمعه.

سيتقاتل الأصدقاء كأعداء. وستُروّع الأرض ومن عليها.

ستتوقف الأنهار عن الجريان وتبقى كذلك لمدة ثلاث ساعات.

بعد هذه الأحداث وقبل يوم القيامة ستبقى قلة من الأحياء. هؤلاء الأحياء سيرون الأشخاص الذين لم يموتوا أبداً. بل رفعوا إلى السماء[3].

ستتغير عواطف البشر وطرق تفكيرهم. سيتحطم الشر وتزول الخديعة ويبطل الغش.

---

(١) إشارة إلى البث التلفزيوني. حيث حلّ التلفزيون مكان الكتاب.

(٢) إشارة إلى نفاد البترول فجأة.

(٣) إشارة إلى الشهداء في سبيل الله.

سينمو الإيمان ويقوى، وينمحق الفساد الأخلاقي ويزول.

سيؤتي الإيمان والصدق ثمارهما.

كان الصوت يتحدث معي والأرض تهتز من تحتي. وبعدما قال لي الملاك: إذا صمت وصليت لمدة سبعة أيام أخرى فسوف أعود لأخبرك بأشياء جديدة أعظم مما أخبرتك به اليوم، ذلك أن الله اطّلع على سريرتك منذ أن كنت شاباً، وقد أرسلني لأريك بعض الأشياء. لذلك كن شجاعاً. ولاتسأل أسئلة لافائدة منها، ولا تكن عجولاً في أسئلتك عن نهاية العالم.